مظاهر الاستدلال العقدي بالماء في القرآن الكريم

The appearances of inference doctrinaire with water in the holy qur’an

دايم عبد الحميد

جامعة أبو بكر بلقايد – تلمسان (الجزائر) daim.abdelhamid@yahoo.fr

تاريخ الاستلام: 2022/03/17 تاريخ القبول: 2022/06/10 تاريخ النشر: 2022/06/15

ملخص:

يهدف البحث إلى الوقوف على أبرز الدلالات الإيمانية العقدية للماء في القرآن الكريم، وهذا من خلال استعراض مختلف السياقات التي ورد فيها ذكر الماء في القرآن الكريم، وذلك باستقراء مختلف النصوص القرآنية الخاصة بذلك وتتبعها وتحليلها وتفسيرها واستنباط أبرز المعاني العقدية التي سيقت لذلك أصالة، وتقرير أبرز الأسس والمبادئ العقدية المتعلقة بهذه النصوص، كما تعرض البحث لاستقراء أبرز مصادر التفسير ومظانه الكبرى وتوظيفها وهذا من خلال منهج علمي تكاملي تمثل في توظيف مجموعة من الأدوات البحثية المنهجية الممثلة في الاستقراء والوصف والتحليل والاستنباط ، كما قام البحث باستعراض لمختلف أقاويل المفسرين وقرر مسالكهم في بيان منهج الاستدلال بالماء في القرآن كطريق لتقرير مختلف المعاني الاعتقادية، كالوحدانية والفردانية والإلاهية والبعث والنشور وغيرها من المقررات الإعتقادية.

كلمات مفتاحية: مظاهر، الاستدلال، العقيدة، الماء، القرآن الكريم.

Abstract:

This research aimed to reach the most faithful and doctrinal indications of water into the holy Qur'an, through different Qur'anic contexts that includes water by: induction , analysis and explanation and deduction to the doctrine meaning refers to these contexts.This study displays the important references of interpretation and it's use through scientific and integrated approach ,it also shows the different sayings of interpreters and their methods in inference of water in the Qur'an with different meanings such as: doctrine,oneness,individuality,the divine,the resurrection.

Keywords: The appearances; inference; doctrinaire ; water; holy qur’an.

1-مقدمة:

الحمد لله الذي خلق من الماء بشرا فجعل منه نسبا وصهرا، والحمد لله الذي جعل من الماء كل شيء حيّ، وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، قدّر فهدى، وخلق فسوّى، وأشهد أنّ محمّدا عبده ورسوله، بلّغ الرسالة وأدّى الأمانة وعلّم وبلغ ما أنزل إليه من ربّه وبعد :

فلقد اعتبر القرآن الكريم الماء عصب الحياة وسر الوجود، وجعله الركن الأساس لبقاء العالم ودوامه واستمراره، فإنّ السماوات خلقت من بخاره والأرض من زبده، وقد جعل الله منه كل شيء حيّ، مصداقا لقوله تعالى: ﴿... وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ (٣٠) ﴾[1].

وللماء في القرآن الكريم مظاهر ودلالات وأحكام، وله فيه ايضا مقاصد ومعان، ولقد جاءت هذه الأحكام في القرآن الكريم متعدّدة المسالك، متنوعة الطرائق. فالسياق القرآني جاء حاويا لأحكام كثيرة متعلقة بالماء، ومن هذه الأحكام؛ الأحكام الاعتقادية المتعلقة بالماء والأحكام الفقهية له كما ذكر القرآن الأحكام التشريعية والقانونية للماء، إلى غير ذلك من الأحكام والدلائل التي زخر بها القرآن الكريم.

وعند استقراء الآيات القرآنية المتعلقة بالماء والنظر فيها، فإنّنا نجد أنّها قد سيقت في مقامات متنوعة وأوردت في سياقات مختلفة، وقد ذُكر الماء في القرآن الكريم في نحو من أربع وستين موطنا ،وجاء هذا الذكر متجليا في القرآن الكريم بقسميه المكي والمدني، فقد ورد ذكره في ثمان وأربعين موطنا في القرآن المكي، كما جاء إيراده في ست عشرة موطنا في القرآن المدني. ولقد أورد الحق سبحانه الماء في مظاهر كثيرة ومتعدّدة ومتجدّدة فما هي هذه المظاهر والدلالات التي ورد فيها ذكر الماء في القرآن الكريم وجاء الاستدلال به على سبيل إثبات الوحدانية والإلهية، كما قد يرد الماء في القرآن الكريم في مقام الاستدلال به على كمال القدرة، وأحيانا يتمّ عرضه في مقام الاستدلال على البعث والنشور، وتارة الاستدلال به في مقام ذكر النعمة وسياق الامتنان به على الخلق وأحيانا أخرى يجيء في سياق ضرب المثل بالماء في القرآن بيانا لحقيقة ما أنزل الله إليهم من الوحي والهدى.

من أجل ارتأيت أن أقف على هذه السياقات الربانية والمقامات الإلهية في الخطابات القرآنية المتعلقة أساسا بالماء، وقد حاولت أن أقف على مختلف دلالاتها الإيمانية لأجل استكناه ما فيها من البراهين العقدية، واستخراج ما فيها من الحجج والعبر الدالة على حقائق الوحي ومقاصد التنزيل، وما اشتملت عليه هذه الأساليب القرآنية من دلالات الفردانية والوحدانية ومعاني الإلهية وكمال القدرة ودلالات البعث والنشور. ولقد أعملت في هذا البحث المنهج التكاملي المتمثل في استعمال مجموعة من المناهج كالمنهج الاستقرائي التحليلي والمنهج الوصفي والمنهج الاستنباطي.

وقد جعلت هذه المادة العلمية في مقدمة وثلاثة مطالب وخاتمة.

– مقدمة.

[1] سورة الأنبياء، الآية 30.

أولا: الاستدلال بالماء على الوحدانية والإلهية.

ثانيا: الاستدلال بالماء على البعث والنشور.

ثالثا: سياق ضرب المثل بالماء في القرآن الكريم.

– خاتمة.

2. الاستدلال بالماء في القرآن على مظهري الوحدانية والإلهية:

من الدلائل العظيمة التي استدلّ الله عز وجلّ بها في القرآن الكريم على وحدانيته وإلهيته واستحقاقه العبادة دليل إسناد إنزال الماء من السماء إليه سبحانه وتعالى، فلقد جاء أمر إنزال الماء من السماء في آياتٍ قرآنية كثيرة مقروناً بآيات عظام كخلق السموات والأرض ،واختلاف الليل والنهار، وإرسال الرياح، والسحاب المسخر بين السماء والأرض إلى غيرذلك من الآيات العظيمة الدالة على صفات الوحدانية والفردانية والقدرة والإرادة والحكمة والعلم والقيومية لله تعالى. ولعلنا نستعرض بعض الآيات القرآنية التي ورد فيها ذكر الماء لنرى كيف تعامل المفسرون مع هذه الآيات وكيف ربطوها بمسألة الوحدانية وتحقيق العبادة لله سبحانه وتعالى وهذا من خلال سرد بعض الامثلة التالية.

– المثال الأول: قوله تعالى في سورة البقرة:﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٦٤) ﴾[1].

لقد جاءت هذه الآية الكريمة في سياق ذكر الوحدانية، فقد تقدّمتها آية الوحدانية في قوله تعالى: ﴿ وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (١٦٣) ﴾[2]، وتقدّمت آية الوحدانية هذه آية النبوة في قوله تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٦١)خَالِدِينَ فِيهَا لا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ (١٦٢) ﴾[3].

1.2.استدلالات الإمام الرازي على مظهري الوحدانية والإلهية:

قد ذكر الإمام الرازي في ثنايا الحديث عن هذه الآية الكريمة مجموعة من الدلائل والمسائل ذات الصبغة العقدية والمتعلقة أساسا بإثبات الوحدانية والفردانية لله تعالى، فقال رحمه الله: "واعلم أنّ الله سبحانه وتعالى لما حكم بالفردانية والوحدانية ذكر ثمانية انواع من الدلائل التي يمكن ان يستدل بها على وجوده سبحانه أولا وعلى توحيده وبراءته عن الأضداد والأنداد ثانياً. وقبل الخوض في شرح تلكم الدلائل لابدّ من بيان مسائل[4]. فذكر الإمام الرازي هذه المسائل وتلاها

[1] سورة البقرة، الآية 164.

[2] سورة البقرة، الآية 163.

[3] سورة البقرة، الآيتين 161. و162.

[4] فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن ابن علي التميمي البكري الرازي الشافعي (544-604هـ. ،التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب ،قدم له هاني الحاج وعلق عليه وخرج أحاديثه عماد زكي البارودي ، المجلد2 الجزء4 ،(د.ط) ،المكتبة التوفيقية القاهرة 2003م.173.

ببيانه لتلكم الدلائل ثم ذكر قوله:...وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا... (١٦٤) ﴾[1]، ثمّ قال رحمه الله تعالى: "ومما لاشك فيه أن في هذه الآية العظيمة من دلائل القدرة والصنعة"[2].

فقد ذكر الله تعالى في ثنايا هذه الآية العظيمة عشر آيات وأصناف من مخلوقاته العظيمة، كلها تنطق على دليل الوحدانية وفيها الدلالة والعبرة على الألوهية، فقد ذكر سبحانه وتعالى خلق السموات والأرض وتعاقب الليل والنهار، والفلك الجارية في البحار بما ينفع الناس، وذكر آية إنزال الماء من السماء وإحياء الأرض بهذا الماء بقدرة الله. كما ذكر بث الدواب في أرجاء الأرض والرياح المصرفة والسحاب المسخّر بين السماء والأرض، فهذه عشر آيات كلها تنطق وتشهد بالتوحيد واستحقاق العبادة لله تعالى.

ثم يستطرد الإمام الرازي في بيان هذه المسائل المتعلقة بالماء والاستدلال بها على مسالة الوحدانية والفردانية وربطه بصفات الربوبية لله تبارك وتعالى كصفة القدرة والإرادة والقيومية والعلم والحكمة، فيقول: واعلم أن دلالته على الصانع من وجوه:[3]

أحدها: أن تلك الأجسام وما قام بها من صفات الرقة والرطوبة والعذوبة ولا يقدر أحد على خلقها إلا الله تعالى، فقال سبحانه وتعالى: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ (٣٠) ﴾[4].

وثانيها: أنه تعالى جعله سبباً لحياة الإنسان ولأكثر منافعه، قال تعالى:﴿ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (٦٨)أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ (٦٩) ﴾[5]، وقوله تعالى: ﴿...وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ(٣٠)﴾[6].

والثالث: أنه تعالى كما جعله سبباً لحياة الإنسان جعله سبباً لرزقه، قال تعالى: ﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (٢٢) ﴾[7].

ثم ذكر في الوجه الرابع والخامس حكمة الله تعالى وعلمه وعظيم قدرته في تصريف الأمور على تمام الغاية وحسن العناية والرعاية، فقال رحمه الله تعالى:

الوجه الرابع: أن السحاب مع ما فيه من المياه العظيمة التي تسيل منها الأودية العظام تبقى معلّقة في جوّ السماء، وذلك من الآيات العظام.

الخامس: أن نزولها عند التضرّع واحتياج الخلق إليه مقدرا بمقدار النفع من الآيات العظام.[8]

---

[1] سورة البقرة، الآية 164.

[2] فخر الدين الرازي ، المرجع السابق191/4/2.

[3] المرجع نفسه.191/4/2-192.

[4] سورة الملك، الآية 30.

[5] سورة الواقعة، الآية 68 و69.

[6] سورة الأنبياء، الآية 30.

[7] سورة الذاريات، الآية 22.

[8] ينظر فخر الدين الرازي ، المرجع السابق.191/4/2-192.

وغير بعيدٍ عن فخر الدين الرازي، فإننا نجد ابن جزي الغرناطي عند تفسيره لهذه الآية الكريمة صدّرها بتقسيم توحيد الخلق لربّهم وجعلها مراتب ثلاثة توحيد العامة وتوحيد الخاصة وتوحيد مقام الفناء، ثم يدلف إلى هذه الآية الكريمة فيقول: "وقد ذكر الله في الآية ثمانية أصنافٍ من المخلوقات تنبيها على ما فيها من العِبر والاستدلال على التوحيد".[1]

2.2. استدلالات جمهرة المفسرين على مظهري الوحدانية والإلاهية:

أما أبو حيان الأندلسي فقد ذكر عند تعرّضه لهذه الآية الكريمة أن الله تعالى بدأ بذكر الخلق أولا، لأنه الآية العظمى والدلالة الكبرى على الإلهية والربوبية، إذ ذلك اختراع لموجود من العدم الصرف. قال تعالى: ﴿ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (١٧) ﴾[2]، وقال سبحانه:﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ(٢٠) ﴾[3].

ودلّ الخلق على جميع الصفات الذاتية من واجبية الوجود والوحدة والحياة والعلم والقدرة والإرادة...[4].

ثمّ تطرّق أبو حيان بعد ذلك للحديث عن صدر الآية الكريمة فقال وقدم السموات على الأرض لعظم خلقها أو لسبقها على خلق الأرض عند من يرى ذلك، ثمّ أعقبه بذكر الفلك ثم أعقب ذلك بذكر أمور اشترك فيها العالم العلوي والعالم السفلي، وهو إنزال الماء من السماء. ونشر ما كان دفيناً في الأرض للأحياء. ثمّ ربط أبو حيان هذه الآية الكريمة بالوحدانية فقال: وهذه الآيات التي ذكرها الله تعالى على قسمين: قسم مدرك بالبصائر، وقسم مدرك بالأبصار، فخلق السموات والأرض مدرك بالعقول، وما بعد ذلك مشاهد للأبصار انتسابه إلى واجب الوجود مستدلّ عليه بالعقول، فلذلك قال تعالى: ﴿لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، ولم يقل لآيات لقوم يبصرون تغليبا لحكم العقل، إذ مآل ما يشاهد بالبصر راجع بالعقل نسبته إلى الله تعالى.[5]

ويرى الإمام ابن عرفة أن هذه الآية الكريمة مرتبطة بالتوحيد والرسالة، فقال: قد تقدمتها آيتين، آية النبوة والرسالة ويعني بها قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٦١)خَالِدِينَ فِيهَا لا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ (١٦٢) ﴾[6]، وآية الوحدانية، وهي قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (١٦٣) ﴾[7]، ثم قال فيحتمل أن تكون دليلا لهذه الآية أو هذه[8]. ويستنبط

[1] ينظر محمد بن أحمد بن جزي الكلبي، التسهيل لعلوم التنزيل، المجلد 1الجزء 1. ط3 ،دار الكتاب العربي، بيروت لبنان ، 1401هـ-1981م.، ص66.

[2] سورة النحل، الآية 17.

[3] سورة النحل، الآية 20.

[4] ينظرمحمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي الغرناطي ،تفسير البحر المحيط ، الجزء 1.ط2.دار الكتاب الإسلامي القاهرة، 1413هـ-1992م.ص 464.

[5] المرجع نفسه.468/1

[6] سورة البقرة، الآية 161 و162.

[7] سورة البقرة، الآية 163.

[8] محمد بن محمد بن عرفة الورغمي(803هـ) ،تفسير بن عرفة ، تحقيق جلال الأسيوطي ، الجزء1.ط1،دار الكتب العلمية ، 2008م.196

أبو السعود من هذه الآية استنباطات عديدة منها أن الأصناف العشرة المذكورة في الآية هي آيات عظيمة كثيرة دالة على القدرة القاهرة والحكمة الباهرة والرحمة الواسعة المقتضية لاختصاص الألوهية به سبحانه وتعالى[1].

وذهب الألوسي إلى أنّ المتأمل في تلك الآيات، ومنها آية إنزال الماء، فإنه سيجد حتماً أن كلا منها مشتمل على وجوه كثيرة من الدلالة على وجوده تعالى ووحدانيته وسائر صفاته الكمالية الموجبة لتخصيص العبادة به تعالى[2].

وقد ساق شهاب الدين الالوسي كلام أبي حيان السابق ذكره فذكر أن الامر المقصود والجامع كون كل منهما آية مستقلة لوحدانية الله تعالى وهو الغرض المسوق له الكلام[3].

ويرى الطاهر بن عاشور إلى أن المقصود من الآية إثبات الدلائل على وجود الله ووحدانيته، ولذلك ذكرت أثر ذكر الوحدانية لأنها إذا ثبتت بها الوحدانية ثبت الوجود بالضرورة[4].

3.الاستدلال بالماء في القرآن على مظهري البعث والنشور:

لما كان البعث هو إعادة بناء الأجساد بعد فنائها، وإعادة الحياة لها بعد سلبها منها، فإنّ كلّ عقل سليم يدرك بداهة أن البدء والإعادة أمران متساويان. فمن يبدأ الخلق ثم يفنيه، قادر على إعادته وبعثه من جديد وبعثه لا محالة.[5]

قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٧) ﴾[6]، والآيات الدالة على البعث والنشور كثيرة جدا، وهي قرينة الآيات الدالة على التوحيد والعبادة، كما أنها متنوعة في طرق الدلالة وضرب الأمثلة.

ولعلنا في هذا المطلب، سنتحدّث عن بعض الآيات القرآنية التي ورد فيها ذكر الماء دليلا وبرهانا أو مثلا مشيرا إلى البعث والنشور.

1.3. استدلالات الإمام ابن القيم على مظهري البعث والنشور:

ذكر ابن القيم استدلالا بالاقيسة والنظائر على صحة البعث بعدما ساق قوله تبارك وتعالى آيات سورة الحج: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ

---

[1] محمد ابو السعود افندي، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم المسمى تفسير أبي السعود . الجزء1.(د.ط). دار الفكر بيروت لبنان . (د.ت).217ص-218.

[2]شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي (1270هـ).روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني. حققه أبو عبد الله فؤاد بن سراج عبد الغفار. الجزء2 .(د.ط).المكتبة التوفيقية ،2008م.ص 52.

[3]المرجع نفسه 46/2.

[4]محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير. الجزء2.(د.ط). الدار التونسية للنشر تونس 1984م.ص77.

[5] ينظر عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني. العقيدة الأساسية وأسسها، ط12.دار القلم دمشق.1425هـ-2004م.، 559-560 (بتصرف).

[6] سورة الروم، الآية 27.

بَهِيجٍ (٥)ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦) ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٩) ﴾[2].

قال ابن القيم: "جعل الله سبحانه إحياء الأرض بعد موتها نظير إحياء الأموات وإخراج النبات منها نظير إخراجهم من القبور، ودل بالنظير على نظيره، وجعل ذلك آية ودليلا على خمسة مطالب؛ أحدها وجود الصانع، وأنه الحق المبين، وذلك يستلزم صفات الله وكماله وقدرته وإرادته وحياته وعلمه وحكمته ورحمته وأفعاله، الثاني: أنه يحيي الموتى، الثالث: عموم قدرته كلّ شيء، والرابع: إتيان الساعة وأنه لا ريب فيها، الخامس: أنه يُخرِج الموتى من القبور كما أخرج النبات من الأرض، وقد كرر سبحانه ذكر هذا الدليل في كتابه مراراً لصحة مقدماته ووضوح دلالته، وقرب تناوله وبعده من كلّ معارضة وشبهة وجعله تبصرة وذكرى"[3]. وذكر ابن جزي الأندلسي بعد تفسيره لآية فصلت أن هذا تمثيل واحتجاج على صحة البعث.[4]

2.3. استدلالات جمهرة المفسرين على مظهري البعث والنشور:

ولبيان هذا الضرب من الاستدلال نسوق الأمثلة التالية:

– المثال الأول: من الآيات الكريمة التي ذكر الله سبحانه وتعالى فيها الاستدلال بالماء على البعث والنشور قوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى (٥٣)كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لأولِي النُّهَى (٥٤)مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى (٥٥) ﴾[5].

في هذه الآيات الكريمات ايراد لأدلة قاطعة وبراهين ساطعة على وجود الله سبحانه وتعالى، وفيها بيان آثار قدرته الباهرة وعزته القاهرة، فقد جعل لنا الأرض مهادا ووطاءا وسلك لنا فيها سبلا فجاجا، كما أنه سبحانه أنزل لنا من السماء ماء فأخرج به الأصناف والأنواع من النبات المختلف المتعدد، ثمّ امتنّ على عباده بالتمتع بهذه الطيبات مما أخرجه لنا وإباحتها لجميع خلقه.

ثم ذكر سبحانه وتعالى في لحاق الآية أنه:﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى (٥٥)﴾[6].

قال أبو جعفر الطبري، وهذا خبر من الله تعالى ذكره على إنعامه على خلقه بما يحدث لهم من الغيث الذي ينزله من سمائه إلى أرضه، بعد تناهي خبره عن جواب موسى فرعون عما سأله عنه، وثنائه على ربّه بما هو أهله. يقول جلّ ثناؤه فأخرجنا نحن أيها الناس بما ننزل من السماء من ماء أزواجا وألوانا من نبات شتى مختلفة الطعوم والأراييج والمنظر.

[1] سورة الحج، الآيتين 5 و6.

[2] سورة فصلت، الآية 39.

[3] محمد بن أبي بكر أيوب ابن القيم الجوزية ،إعلام الموقعين عن رب العالمين. الجزء1.مكتبة بن تيمية مصر .ط1. ، ص144.

[4] ينظر محمد بن أحمد بن جزي الكلبي ، المرجع السابق. 14/4/1.

[5]سورة طه الآيات 53-54-55.

[6]سورة طه الآية 53 فما بعدها.

ثم يمتن الله على عباده فيقول: كلوا أيها الناس من طيب ما أخرجنا لكم بالغيث الذي أنزلناه من السماء إلى الأرض من ثمار ذلك وطعامه، وما هو من أقواتكم وغذائكم، وارعوا فيها هو أرزاق بهائمكم منه وأقواتها أنعامكم. وهذه الآيات هي دليل على قدرة ربكم وعظيم سلطانه، وهذه الآيات هي دلالات وعلامات تدلّ على وحدانية ربكم وقدرته على إعادة إخراجكم مرة أخرى كما أخرجكم منها أول مرة[1].

– المثال الثاني: قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٥٧) ﴾[2].

استفتح ابن عطية هذه الآية الكريمة بوصفها آية الاعتبار والاستدلال، وذكر أن الله تعالى ساق القدرة العظيمة على إنزال الماء من السماء وإخراج الثمرات من الأرض الميتة نظير القدرة على إحياء الموتى من الأجداث[3].

وقد ذكر ابن عطية أن وجه الشبه بين إحياء الموتى من القبور مع إحياء الأرض الميتة بالنبات هو نزول ماء المطر الذي يبعثه الله عليهم من تحت العرش، يقال له ماء الحيوان، فينبتون كما ينبت الزرع، فإذا كملت أجسادهم نفخ فيهم الروح، ثم تلقى عليهم نومة فينامون فإذا نفخ في الصور الثانية، قاموا وهم يجدون طعم النوم، فيقولون يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا، فيناديهم المنادي هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون[4].

ويرى الفخر الرازي خلال حديثه عن هذه الآية الكريمة أن في كيفية النظم وجهين، الأول: أنه تعالى لما ذكر دلائل الإلهية وكمال العلم والقدرة من العالم العلوي وهو السموات والشمس والقمر والنجوم اتبعه بذكر العالم السفلي، وذكر الرازي أنّ أحوال هذا العالم – يعني السفلي – محصورة في أمور أربعة الآثار العلوية والمعادن والنبات والحيوان، ومن جملة الآثار العلوية الرياح والسحاب والأمطار، ويترتب على نزول الأمطار أحوال النبات، وذلك هو المذكور في الآية.

الوجه الثاني: في تقرير النظم أنه تعالى لما أقام الدلالة في الآية الأولى على وجود الإله القادر العالم الحكيم الرحيم أقام الدلالة في هذه الآية على صحة القول بالحشر والنشر والبعث والقيامة ليحصل بمعرفة هاتين الآيتين كل ما يحتاج إليه من معرفة المبدأ و المعاد[5].

وقد ذكر القرطبي عند بيان هذه الآية الكريمة، أنّ النعم السابقة من خلق السموات والأرض وغشيان الليل والنهار وتسخير الشمس والقمر والنجوم وإرسال الرياح ونزول الماء من السماء وإخراج الثمرات، وكل ذلك بإذن الله تعالى هي من

---

[1] محمد بن جرير الطبري.(310هـ).جامع البيان عن تأويل آي القرآن. حققه وعلق على حواشيه محمود محمد شاكر، راجعه وخرج أحاديثه أحمد محمد شاكر. ط1.دار بن الجوزي. القاهرة مصر . 2008م.
.493/12

[2] سورة الأعراف، الآية 57.

[3] ينظرعبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (546هـ). الجزء7.تحقيق المجلس العلمي فاس المغرب .1400هـ-1980م.ص81.

[4] ينظرالمرجع نفسه85/7.

[5] ينظر فخر الدين الرازي . المرجع السابق. 123/13/7..

أعظم الدلائل على تقرير الوحدانية وثبوت الإلهية[1]. وفي سياق التفسير لقوله تعالى: ﴿ ... فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٥٧) ﴾[2].

قال القرطبي: "ومثل ذلك الإخراج نحيي الموتى، ثم ساق حديث ابن رزين العقيلي استدلالا به على البعث والنشور"[3].

قال: "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "كيف يعيد الله الخلق وما آية ذلك في خلقه؟ قال: "أما مررت بوادي قومك جذبا ثم مررت به يهتز خضرا، قال: نعم، قال: فتلك آية الله في خلقه"[4]. قال القرطبي تعليقا وقيل: "وجه التشبيه أن إحياءهم من قبورهم يكون بمطر يبعثه الله على قبورهم فتنشق عنه القبور ثم تعود إليهم الأرواح[5]. وفي صحيح مسلم من حديث عبد الله عن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم: "ثمّ يرسل الله – أو قال ينزل الله مطرا كأنه الطل فتنبت منه أجساد الناس، ثم يقال يا أيها الناس هلموا إلى ربكم وقفوهم إنهم مسؤولون"[6]، فدلّ ذلك على البعث والنشور وإلى الله ترجع الأمور".[7]

ويرى محمد الطاهر بن عاشور أن وجه المناسبة بين هذه الآية الكريمة وبين سباقها من الآيات هو ما ذكره الله تعالى من قرب رحمته من المحسنين وذكر بعضاً من هذه الرحمة العامة وهو إنزال المطر. وفي الآية تعريض ببشارة المؤمنين بإغداق الغيث عليهم ونذارة المشركين بالقحط والجوع[8].

وذهب ابن عاشور إلى أن المطر في الاية هو رحمته، فقال: ويرسل الرياح سابقة رحمته، والرحمة هذه أُريد بها المطر فهو من إطلاق المصدر على المفعول لأن الله يرحم به، ثمّ ذكر بعد قوله تعالى: ﴿ ... كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٥٧) ﴾[9]، والمراد هو التذكر الشامل الذي يزيد المؤمن عبرة وايماناً، والذي من شأنه أن يقلع من المشرك اعتقاد الشرك، ومن منكر البعث إنكاره[10].

4.الاستدلال العقدي للماء في سياق ضرب المثل القرآني:

الغاية من ضرب المثل هو تقريب البعيد وتوضيح الغامض حتى يصبح كالأمر المحسوس وقد جاء المثل في القران على ضروب متنوعة واشكال متعددة ومن ذلك:

1.4. ضرب المثل بالماء للحياة الدنيا الفانية وأن مآلها إلى الفناء والزوال:

---

1. محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، الجامع لأحكام القرآن،الجزء 7. دار احياء التراث العربي بيروت لبنان ، 1405هـ- 1985م.ص 218-219.

2 سورة الاعراف الآية 57.

3 محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي. المرجع السابق. 230/7.

4 محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي .المرجع السابق 230/7.

5 محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي. المرجع السابق.230/7.

6 أخرجه مسلم في صحيحه.في كتاب الفتن واشراط الساعة باب في خروج الدجال ومكثه في الارض ونزول عيسى وقتله برقم5366.

7 ينظر محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي. المرجع السابق.230/7.

8 ينظر محمد الطاهر بن عاشور، المرجع السابق /180/2-181.

9 سورة الاعراف الآية 57.

10 ينظر محمد الطاهر بن عاشور، المرجع السابق./183/2-184.

ورد في القرآن الكريم آيات كثيرة تتحدث عن الحياة الدنيا، وقد بيّنت حالها وشأنها، كما وضحت أحوال أهلها. وقد وردت في مئة وخمسة عشر موضعا في البيان القراني الكريم وقد جاء ذكرها في مقامات متعددة وسياقات متنوعة.

فقد جاء ذكر لفظ الحياة الدنيا في سياق التحذير من فتنتها والاغترار بزخرفها ومتاعها، وجاءت في سياق ومقام آخر، حيث ذكرت في سياق تفضيل الآخرة عليها والتزهيد فيها، كما جاءت في سياق ثالث وهو سياق الأخذ بالنصيب من الدنيا مع جعل الآخرة هي المقصد الأعظم.

ومن الآيات التي وردت في سياق التحذير من فتنتها والانخداع بزخرفها والاغترار بمعانيها، قوله تعالى في سورتي لقمان وفاطر.

فقد قال جلّ شأنه في سورة فاطر: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (٥) ﴾[1].

وفي سورة لقمان قوله تعالى: ...﴿ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴾[2] .

وفي سورة الأنعام قوله تعالى: ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾[3].

وجاءت آيات أخرى تبيّن أنّ الحياة الدنيا مجرد لعب الأبدان ولهو القلوب، وزينة الأموال وتفاخر بالمكتسبات والأعيان.

وقد ضرب الله سبحانه وتعالى مثلاً للحياة الدنيا بالماء في العديد من الآيات القرآنية، منها ما ورد في سورة يونس ومنها ما ورد في الكهف.

قال الإمام القرطبي في الجامع، قال الحكماء: "وإنما شبّه الله الدنيا بالماء، لأنّ الماء لا يستقرّ في موضع، كذلك الدنيا لا تبقى على حال واحد. وأن الماء لا يستقيم على حالة واحدة، كذلك الدنيا، ولأن الماء لا يبقى ويذهب، كذلك الدنيا تفنى، ولأن الماء لا يقدر أحد أن يدخله ولا يبتلّ، كذلك الدنيا لا يسلم أحد من فتنتها وآفتها، ولأن الماء إذا كان بقدرٍ كان نافعا منبتاً، وإذا جاوز المقدار كان ضاراً مهلكا، وكذلك الدنيا الكفاف منها ينفع وفضولها يضر"[4].

2.4. الأمثلة التطبيقية لضرب المثل بالماء للحياة الدنيا الفانية وأن مآلها إلى الفناء والزوال:

ولعلنا نسوق بعض الامثلة الموضحة لذلك :

---

[1] سورة فاطر، الآية 5.

[2] سورة لقمان، الآية 33.

[3] سورة الأنعام، الآية 32.

[4] ينظر محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي. المرجع السابق 412/10.

المثال الأول: قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢٤) ﴾[1].

قال القرطبي: "ومعنى الاية التشبيه والتمثيل اي صفة الحياة الدنيا في فنائها وزوالها وقلة خطرها والملاذ بها كماء أي كمثل ماء"[2].

ذكر الإمام الرازي في ثنايا الحديث عن هذه الآية الكريمة أن الله تعالى وجلّ ذكره لما قال في سياق الآية ﴿ فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٣) ﴾[3]. اتبعه بهذا المثل العجيب الذي ضربه لمن يبغي في الأرض ويغترّ بالدنيا ويشتدّ تمسّكه بها، ويقوي إعراضه عن أمر الآخرة والتأهب لها، فقال تعالى: ﴿ ... يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٣)إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢٤)﴾[4] ثمّ ذكر الفخر الرازي عقب هذه الآية الكريمة أن تشبيه الحياة الدنيا بهذا النبات يحتمل وجوها لخصها القاضي رحمه الله:

- الوجه الأول: أن عاقبة هذه الحياة الدنيا التي ينفقها المرء في باب الدنيا كعاقبة هذا النبات الذي حين عظم الرجاء في الانتفاع به وقع اليأس منه لأن الغالب أن المتمسك بالدنيا إذا وضع عليها قلبه وعظمت رغبته فيها يأتيه الموت، وهو معنى قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ (٤٤) ﴾[5]. ثم ذكر الرازي خسرانهم في كلتا الحالتين فقال فهم " خاسرون الدنيا وقد أنفقوا أعمارهم فيها، وخاسرون الآخرة مع أنهم متوجهون إليها"[6].

- والوجه الثاني في التشبيه أنه تعالى بيّن كما لم يحصل لذلك الزرع عاقبة تحمد، فكذلك المغترّ بالدنيا المحبّ لها لا يحصل له عاقبة تحمد.[7]

ثم ذكر الرازي أوجهاً أخرى متعلقة بمعنى الآية الكريمة، ثم ذكر الوجه الخامس بعد ذلك فقال لعلّه تعالى إنما ضرب هذا المثل لمن لا يؤمن بالمعاد، وذلك لأننا نرى أنّ الزرع الذي قد انتهى إلى الغاية القصوى في التربية قد بلغ الغاية في الزينة والحسن، ثم يعرض للأرض المتزينة به آفة، فيزول ذلك الحسن بالكلية ثم تصير تلك الأرض موصوفة بتلك الزينة مرة أخرى

[1] سورة يونس الآية 24 .

[2]. ينظر محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي. المرجع السابق 327/8.

[3] سورة يونس، الآية 23.

[4] سورة يونس، الآية 23.

[5] سورة الأنعام، الآية 44.

[6] ينظر فخر الدين الرازي ، المرجع السابق 62/17/9-63.و119/21/11.

[7] ينظر المرجع نفسه..63/17/9.

فذكر هذا المثل ليدل على أنّ من قدر على ذلك كان قادراً على إعادة الأحياء في الآخرة ليجازيهم على أعمالهم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشرّ.[1]

وفي ضرب المثل بالماء في الآية الكريمة إنمّا هو تنبيه للعباد وعلى عدم الإغراق في طلب الدنيا وزينتها، فإنّ مصيرها إلى فناء وزوال كما مصير النبات إلى هلاك وبوار، وأن يطلبوا الآخرة فإنها باقية خالدة.

ويرى ابن جزي أنّ في الآية معنى التحقير لهذه الدنيا وبيان سرعة فنائها وشبّهها بالمطر الذي يخرج به النّبات ثمّ تصيب ذلك النّبات آفة عند حسنه وكماله[2].

– المثال الثاني: قال تعالى: ﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا (٤٥) ﴾[3].

في هذه الآية الكريمة ضرب الله مثلا للحياة الدنيا بالماء، وهو تشبيه تمثيلي، حيث شبّه الله سبحانه وتعالى الحياة الدنيا وما فيها من بهجة مع زخرف العيش، ثم تقلصها وزوالها بهيئة إقبال الغيث منبت الزرع ونشأته عنه ونضارته ووفرته، ثم أخذه في الانتقاص وانعدام التمتع به ثم تطايره في الهواء، وأن الله الذي هو على كلّ شيء قدير، الذي جعل البدايات مفضية إلى النهايات، وأوائل الأشياء مفضية إلى أواخرها، حيث رتب أسباب الفناء على أسباب البقاء، وذلك اقتدار عجيب في نظر الإمام محمد الطاهر بن عاشور[4].

وقد ذكر الإمام النسفي في مدارك التنزيل وحقائق التأويل لما تعرض لهذه الآية الكريمة أن ضرب المثل بالماء للحياة الدنيا هنا من باب التشبيه المركّب، وقد شبهت حال الدنيا في سرعة تقصيها وانقراض نعيمها بعد الإقبال بحال نبات الأرض في جفافه وذهابه حطاما بعدما التفّ وتكاثف وزيّن الأرض بخضرته ورفيفه، وحكمة التشبيه التنبيه على أن الحياة صفوها شبيبتها وكدرها شيبتها، كما أنّ الماء في أعلى الإناء[5].

قال الشاعر[6]:

ألم تـــــر أنّ العمـــــــر كـــــــأس ســــــلافة *** فأولــــــــه صــــــــفو وآخـــــــره كـــــــــدر

3.4.ضرب المثل بالماء في القرآن الكريم للنفاق:

[1]ينظر فخر الدين الرازي ، المرجع السابق 76/21/11-77.

[2]ينظر محمد بن أحمد بن جزي الكلبي المرجع السابق 92/2/1.

[3] سورة الكهف، الآية 45.

[4]ينظر محمد الطاهر بن عاشور، المرجع السابق 332/15.

[5]ينظر علي بن محمد بن حبيب الماوردي البصري (450هـ) ، النكت والعيون المسمى تفسير الماوردي. راجعه وعلق عليه السيد عبد المقصود بن عبد الرحيم، الجزء 2.(د.ط).دار الكتب العلمية بيروت لبنان.(دت).ص 950-951.

[6]ينظر المرجع نفسه 950/2-951.

يقول الحق تبارك وتعالى في سورة البقرة: ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لا يُبْصِرُونَ (١٧)صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ (١٨)أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ (١٩) ﴾[1].

هذه الآيات نزلت في بيان شأن المنافقين وفي ذكر صفاتهم، وقد سبق في أول السورة الكريمة ذكر صفات المؤمنين، وأعقبها بذكر صفات الكافرين، وقد أطنب في ذكر أوصاف المنافقين في ثلاث عشرة آية لينبه على عظيم خطير هذا الضرب من الناس وكبير ضررهم على المجتمع، وأعقب ذلك بضرب مثلين، أحدهما ناري والثاني مائي، وهو ما نحن بصدد بيانه، وهذا من باب الكشف والبيان لأوصافهم وأخلاقهم، ولنوضح ما تنطوي عليه نفوسهم من ظلم وفساد وضلال.

وقد ذكر الواحدي والسيوطي في أسباب النزول لهذه الآية أنه كان هناك رجلين من المنافقين من أهل المدينة هربا من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المشركين فأصابهما هذا المطر الذي ذكر الله فيه رعد شديد وصواعق وبرق، فجعلا كلما أصابهما الصواعق جعلا أصابعهما في آذانهما من الفرق أن تدخل الصواعق في مسامعهما فتقتلهما، وإذا لمع البرق مشيا إلى ضوئه، وإذا لم يلمع لم يبصرا فأتيا مكانهما يمشيان فجعلا يقولان ليتنا قد أصبحنا فنأتي محمدا فنضع أيدينا في يده، فأتياه فأسلما ووضعا أيديهما في يده وحسن إسلامهما، فضرب الله شأن هذين المنافقين الخارجين مثلا للمنافقين الذين بالمدينة ... إلى آخر الكلام[2].

ويرى الماوردي في النكت والعيون أن هناك أقاويل وآراء متعددة للعلماء في ضرب هذا المثل المائي الذي ضرب مرة ثانية بعد ضرب المثل الناري، ويجمل هذه الاتجاهات والأقاويل في ثلاثة آراء[3]:

– أحدها: أنه مثل للقرآن شبّه المطر المنزّل من السّماء بالقرآن، وما فيه من الظلمات بما في القرآن من الابتلاء، وما فيه من الرعد، بما في القرآن من الزجر، وما فيه من البرق بما في القرآن من البيان، وما فيه من الصواعق بما في القرآن من الوعيد الآجل، والدعاء إلى الجهاد العاجل، وهذا المعنى عن ابن عباس.

– الثاني: أنه مثل لما يخافونه من وعيد الآخرة لشكهم في دينهم وما فيه من البرق بما في إظهار الإسلام من حقن لدمائهم وومواريثهم، وما فيه من الصواعق بما في الإسلام من الزواجر بالعقاب في العاجل والآجل.

والثالث: أنه ضرب الصيب مثلا بظاهر ايمان المنافق، ومثل ما فيه من الإيمان بصلابته وما فيه من البرق بنور ايمانه وما فيه من الصواعق بهلاك نفاقه.

ورأي القرطبي قريب من هذا الرأي الذي يراه الماوردي ، حيث يقول في الجامع لأحكام القرآن :

"وشبّه الله تعالى في هذه الآية أحوال المنافقين بما في الصيب – وهو المطر – من الظلمات والرعد والبرق والصواعق، فالظلمات مثل ما يعتقدونه من الكفر والرعد والبرق مثل ما يخوفون به. وقيل مثل الله تعالى القرآن بالصيب لما

[1] سورة البقرة، الآيات 17 -18- 19.

[2] ينظر جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي . ط1.لباب النقول في أسباب النزول. دار احياء العلوم بيروت لبنان . 1978م.17-18.

[3] ينظر علي بن محمد بن حبيب الماوردي البصري المرجع السابق. 1/82-83.

فيه من الإشكال عليهم، والعمى هو الظلمات، وما فيه من الوعيد والزجر هو الرعد، وما فيه من النور والحجج الباهرة التي تكاد أحيانا أن تبهرهم هو البرق، والصواعق مثل لما في القرآن من الدعاء إلى القتال في العاجل والوعيد في الآجل[1].

أما ابن كثير فعند حديثه عن هذه الآيات نراه يربطها بسياقها السابق فيقول في الناس أقسام مؤمنون خلّص وهو إشارة إلى الآيات التي فيها ذكر صفات المؤمنين، وكفار خلّص، وفيه إشارة أيضا إلى الآيات السابقة في بيان أوصاف الكفار، ثم يتطرق إلى ذكر المنافقين، فيفصل القول فيهم بتقسيمهم إلى قسمين، منافقون خلص وهم الذين ضرب الله لهم المثل الناري، ومنافقون مترددون فتارة يظهر لهم لمع من الإيمان، وتارة يخبو وهم أصحاب المثل المائي، وهم أخف حالا من اللذين قبلهم[2].

ويذهب السيد محمد رشيد رضا إلى الرأي الذي ذهب إليه ابن كثير في تفسيره لهذه الآية فيرى أن الفريق الأول من المنافقين والذي ضرب له المثل الناري هو ذلك الصنف الذي عرف الحق ثم أنكره، ورأي الهداية والخير لكنه تولى عن الإيمان إلى الكفر والضلال، فمثله في كفره بعد إيمانه وذهاب نوره، رجوعه إلى ظلمته بعد نوره، وهو كمثل من استوقد ناراً فأطفأها الله وتركهم في ظلمات لا يبصرون[3].

أما الفريق الثاني الذي ضرب له المثل المائي في قوله تعالى ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ (١٩) ﴾[4]، فهو ذلك الصنف الذي يظهر لهم الحق والهدى تارة ويشكو تارة أخرى، فهم في حالة من التذبذب والشك والحيرة والتخبط، فحال قلوبهم في ترددهم وكفرهم وشكهم (كصيّبٍ) فيه ظلمات ورعد وبرق.

فالظلمات هي الشكوك والكفر، والرعد هو الخوف الشديد والفزع، وحال المنافقين وشأنهم، وأما البرق الذي يستطيع فهو ما يلمع في قلوب هؤلاء من الإيمان في بعض الأحيان[5].

هذا وجمهرة المفسرين يرونهم نوعا واحداً من المنافقين وهو ما ذهب إليه ابن جرير الطبري والزمخشري والفخر الرازي وابن عرفة وابن جزي وأبو حيان الألوسي والقاسمي والطاهر بن عاشور وغيرهم.

قال أبو حيان:" ومن نظر في حال المنافق منهم من يشبهه بحال المستوقد ومنهم من يشبهه بحال ذوي الصيب. والتمثيل الثاني –يعني التمثيل بالصيب– أتى كاشفاً لحالهم يعني المنافقين بعد كشف الأول وإنما قصد بذلك التفصيل

---

[1] ينظر محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي. المرجع السابق 222/1..

[2] ينظر عماد الدين اسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي (774هـ) ،تفسير القرآن العظيم.الجزء1. ط1، دار بن حزم .بيروت لبنان . 1420هـ-2000 م.ص96-97-98. وينظر محمد بن عبد الله بن صالح السحيم الدلالة العقدية للماء في القرآن الكريم.1431هـ .جامعة الملك سعود كلية التربية قسم الثقافة الاسلامية.ص33.

[3] ينظر محمد رشيد رضا ، تفسير القرآن الحكيم المسمى تفسير المنار . تحقيق وتعليق فؤاد سراج عبد الغفار .الجزء 1.(دط) ،المكتبة التوفيقية.(دت).ص 179-180..

[4] سورة البقرة الآية 19.

[5] ينظر محمد رشيد رضا ، المرجع نفسه.183/1-184.

والإسهاب بحال المنافق وشبهه في الأول بمستوقد النار. وإظهاره الإيمان بالإضاءة .وانقطاع جدواه بذهاب النور، وشبّه في الثاني دين الإسلام بالصيّب وما فيه من الوعد والوعيد بالرعد والبرق .وما يصيبهم من الإفزاع والفتن من جهة المسلمين بالصواعق وكلا التمثيلين من التمثيلات المفرقة.[1]

ويرى ابن جزي أن المثل المائي المضروب بعد المثل الناري ما هو إلا مثل آخر للتنويع، وهو مثل آخر ضربه الله للمنافقين.[2]

وأما القاسمي في محاسن التأويل فهو عند بيانه لقوله تعالى: ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ ﴾[3] يرى أن المثل الثاني ما هو إلا تمثيل لحال المنافقين المضروب لهم المثل الناري السابق، فيقول وهذا تمثيل لحالهم إثر تمثيل ليعمّ البيان منها كلّ دقيق وجليل ويوفى حقها من التفظيع والتهويل فإنّه تفنّنهم في فنون الكفر والضلال حقيق بأن يضرب في شأنه الأمثال، وكما يجب على البليغ في مظان الإجمال والايجاز – أن يجمل ويوجز – فكذلك الواجب عليه في موارد التفصيل والإشباع أن يفصل ويشبع[4].

هذا وقد تبع جمهور المفسرين في هذا الرأي الشيخ الطاهر بن عاشور الذي يرى أنهم فريق واحد، وقد ذكر عند بيان المثل الناري: أنّ المراد تشبيه حال المنافقين في ظهور أثر الإيمان ونوره مع تعقبه بالضلالة ودوامه بحال من استوقد نارا فلما أضاءت دهب الله بنوره، فتركه في ظلمات لا يبصر[5].

بينما عند بيانه للمثل المائي فقد ذكر أنه أعيد تشبيه حال المنافقين بتمثيل آخر وبمراعاة أوصاف أخرى، وهذا التمثيل لحال أولئك المنافقين حال سماعهم القرآن وإرشاداته فتتجاذب نفوسهم جواذب الخبر وحال انجذاب نفوسهم وقلوبهم إلى الشك والحيرة والسخرية بالمسلمين، وهذا حال الصيب من السماء اختلطت فيه غيوث وأنوار ومزعجات وأكدار[6].

وذهب الصابوني إلى أنّ الغاية من المثل تقريب البعيد وتوضيح الغامض حتى يصبح كالأمر المحسوس، وهذا التشبيه هو من التشبيه التمثيلي لأن الله تعالى شبه الإسلام، لأن القلوب تحيا به كحياة الأرض بالماء، وشبه شبهات الكفار بالظلمات، وشبه ما في القرآن من الوعد والوعيد بالبرق والرعد[7].

3. ضرب المثل بالماء للذين يدعونهم من دون الله فلا يستطيعون إجابتهم:

قال تعالى: ﴿ لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلا فِي ضَلالٍ (١٤) ﴾[1].

---

[1] ينظر محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي الغرناطي المرجع السابق. 1/74-75.

[2] ينظر محمد بن أحمد بن جزي الكلبي ، المرجع السابق 1/1/38-39.

[3] سورة البقرة جزء من الآية 19.

[4] ينظر محمد جمال الدين القاسمي (1332هـ).محاسن التأويل . تحقيق أحمد بن علي حمدي صبح .الجزء 1.(د.ط). دار الحديث القاهرة 1424هـ-2003م.286..

[5] ينظر محمد الطاهر بن عاشور، المرجع السابق 1/1/307.

[6] ينظر محمد الطاهر بن عاشور، المرجع السابق 1/1/315.

[7] ينظر محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير. الجزء1 ط1.دار الكتب العلمية بيروت لبنان . 1420هـ-1999م.ص22 -23-24.

هذه الآية الكريمة فيها استئناف ابتدائي بمنزلة النتيجة ونهوض المدلل عليه بالآيات السالفة التي هي براهين الانفراد بالخلق الأول ثم الخلق الثاني، وبالقدرة التامة التي لا تدانيها قدرة قدير وبالعلم العام، فلا جرم أن يكون صاحب تلك الصفات هو المعبود بالحق وأنّ عبادة غيره ضلال. ودعاء الله يصدر عن اعتقاد الوحدانية والحق، وعبادة الأصنام تصدر عن اعتقاد الشرك وهو الباطل.[2]

وقد ورد في سبب نزول الآية السابقة والتي لا يمكن لنا فهم هذه الآية إلا في ضوء سياقها، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث رجلاً إلى جبار من فراعنة العرب فقال: اذهب فادعه لي فقال يا رسول الله: إنه جبار عات قال: اذهب فادعه لي، فذهب إليه، فقال: يدعوك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال أخبرني عن إله محمد أم ذهب هو؟ أو من فضة؟ أو من نحاس؟ فرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره بما قال الرجل، وقال له ألم أخبرك أنه أعتى من ذلك؟ فقال: ارجع له الثانية فادعه لي، فرجع إليه فأعاد عليه ذلك الكلام، فبينما هو يجادله إذ بعث الله عليه سحابة حيال رأسه فرعدت فوقعت منها صاعقة فذهبت بقحف رأسه، فأنزل الله تعالى: ﴿ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ (١٣) ﴾[3].

وفي الآية الكريمة تشبيه تمثيلي حيث شبّه الحق سبحانه وتعالى عدم استجابة الأصنام للداعين لها بعدم استجابة الماء لباسط كفيه إليه من بعد فوجه الشبه منتزع من متعدد.[4]

وذهب الإمام أبو السعود في تفسيره إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم إلى أنّ هذا المثل هو تشبيه لحال المشركين في عدم حصولهم في دعاء آلهتهم على شيء أصلاً وركاكة رأيهم في ذلك بحال عطشان هائم لا يدري ما يفعل قد بسط كفيه من بعيد إلى الماء يبغي وصوله إلى فيه من غير ملاحظة التشبيه في جميع مفردات الأطراف. فإن الماء في نفسه شيء نافع بخلاف آلهتهم، والمراد نفي الاستجابة رأساً، إلا أنه قد أخرج الكلام مخرج التهكم بهم فقيل: لا يستجيبون لهم شيئا من الاستجابة إلا استجابة كائنة في هذه الصورة التي ليست فيها شائبة الاستجابة قطعا فهو في الحقيقة من باب التعليق بالمحال.[5]

وقال الإمام النسفي في مدارك التنزيل: الاستثناء من المصدر في قوله تعالى: ﴿ ... إِلا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ ...﴾، أي من الاستجابة التي دل عليها لا يستجيبون لأن الفعل بحروفه يدل على المصدر، وبصيغته على الزمان وبالضرورة على المكان والحال فجاز استثناء كل منهما من الفعل فصار التقدير: لا يستجيبون استجابة إلا استجابة

---

[1] سورة الرعد، الآية 14.

[2] ينظر: محمد الطاهر بن عاشور، المرجع السابق 107/13-108.وانظر ايضا محمد علي الصابوني، صفوة التفاسيرالمرجع السابق. 535/2-536-537.

[3] سورة الرعد، الآية 13.

[4] ينظر جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي ، ص 239.

[5] محمد ابو السعود افندي المرجع السابق45/3.

كاستجابة باسط كفيه إلى الماء، أي كاستجابة الماء لمن بسط كفيه إليه يطلب منه أن يبلغ فاه وكذلك ما يدعونه جماد لا يحسّ بدعائهم ولا يستطيع إجابتهم ولا يقدر على نفعهم.[1]

ويذهب السعدي إلى أنّ التشبيه في هذه الآية الكريمة وضرب المثل بالماء هنا من أحسن الأمثلة، حيث يقول: "وتشبيه دعاء الكافرين لغير الله بالذي يبسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه من أحسن الأمثلة فإن ذلك تشبيه بأمر محال، فكما أنّ هذا محال، فالمشبه به محال، والتعليق على المحال من أبلغ ما يكون في نفي الشيء[2]، قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ (٤٠) ﴾[3].

وذهب الإمام الماوردي إلى أنه في معنى هذا المثل ثلاثة أوجه:

– أحدها: أن الذي يدعو إلها من دون الله كالظمآن الذي يدعو الماء ليبلغ إلى فيه من بعيد يريد تناوله ولا يقدر عليه بلسانه، ويشير إليه بيده فلا يأتيه أبدا، لأن الماء لا يستجيب له، وما الماء ببالغ إليه. وهذا الرأي ذهب إليه مجاهد.

– الثاني: أنه كالظمآن الذي يرى خياله في الماء، وقد بسط كفه فيه ليبلغ فاه وما هو ببالغه لكذب ظنّيه وفساد توهمه وهذا قاله ابن عباس.

– الثالث: أنه كباسط كفيه إلى الماء ليقبض عليه فلا يحصل في كفيه شيء منه.[4]

وقال القرطبي ضرب الله عزل وجل الماء مثلا ليأسهم من الإجابة لدعائهم لأن العرب تضرب لمن سعى فيما لا يدركه مثلا بالقابض الماء باليد.

قال أبو الهذيل:

فأصبحت فيما كان بيني وبينها * من الود مثل القابض الماء باليد.**

ثم نقل القرطبي الأقوال والأوجه الثلاثة التي ذكرها الماوردي[5].

وذهب الشيخ محمد الطاهر بن عاشور على أنّ الكلام تمثيلية، حيث شبّه حال المشركين في دعائهم الأصنام وجلب نفعهم وعدم استجابة الأصنام لهم بشيء بحال الظمآن يبسط كفيه يبتغي أن يرتفع الماء في كفيه المبسوطتين إلى فمه ليرويه .وما هو ببالغ إلى فمه بذلك الطلب فيذهب سعيه وتعبه باطلا مع ما فيه من كناية وتلميح[6].

4. ضرب المثل بالماء للحق والباطل:

---

[1] علي بن محمد بن حبيب الماوردي البصريالمرجع السابق..803/2.

[2] ينظر عبد الرحمن بن ناصر السعدي(1376هـ).تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ،ط1. شركة القدس القاهرة. 1429هـ-2008م.ص414.

[3]سورة الأعراف، الآية 40.

[4]ينظر علي بن محمد بن حبيب الماوردي البصري، المرجع السابق.103/3-104..

[5]ينظر محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي. المرجع السابق.301/9-0-301.

[6]ينظر محمد الطاهر بن عاشور، المرجع السابق.109/13.

يقول الله تبارك وتعالى في سورة الرعد: ﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ (١٧) ﴾[1].

هذه الآية نزلت لبيان الحق وأهله والباطل وحزبه، وقد ذكر الله في الآيات السابقة أن في الأرض دعوتين، دعوة الحق ودعوة الباطل.

وذكر أن دعوة الله هي دعوة الحق، ودعوة الذين يدعون من دونه هي دعوة الباطل، فضرب لذلك مثلين ليتضح الفرق بين الحق والباطل والفرق بين الهدي والضلال والرشد والغي، ثم أعقبه بذكر مآل المؤمنين في دار النعيم والكافرين في دار الجحيم.[2]

وفي هذه الآية الكريمة ضرب الله بالماء مثلاً للحق وهو القرآن الكريم ومثل له بذلك الماء الخالص الذي ينزل من السماء، فتسيل به الأودية وينتفع به أهل الأرض، وبالجوهر الخالص الذي ينتفع بها العباد، وشبّه الباطل في سرعة اضمحلاله وزواله بالزبد الذي يرى به السيل، ويريد تلك المعادن التي يطفو فوقها إذا أذيبت وليس في الزبد منفعة وليس له دوام.[3]

وهذا التشبيه في الآية الكريمة هو من التشبيه التمثيلي الذي فيه وجه الشبه منتزع من متعدد، وهو تمثيل في منتهى الروعة والجمال فقد مثل الله تعالى الحق بالماء الصافي الذي يستقر في الأرض والجوهر الصافي من المعادن الذي ينتفع به العباد، ومثل الباطل بالزبد والرغوة التي تظهر على وجه الماء والخبث من الجوهر.[4]

وجو الآية الكريمة في سياق تقرير التوحيد والتنديد بالكفر والشرك.

وقد مثل الوحي والهدى الذي أنزله الله على رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم بالماء النازل من السماء على قلوب عباده وأوليائه، وقد ورد مثل هذا المثل في هذه الآية الكريمة حديث رسول الله صلى الله عليه وسلّم الذي رواه أبو موسى عن رسول الله صلى الله عليه وسلّم قال: "إنّ مثل ما يعثني الله عز وجلّ من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً فكانت منها طائفة طيبة وقبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير. وكان من أجاذب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس، فشربوا

---

[1]سورة الرعد الآية 17.

[2] ينظر محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير.535/2. محمد علي الصابوني .د.صالح أحمد رضا ،مختصر تفسير الطبري ،الجزء1.ط2 ،مكتبة رحاب الجزائر.. 1408هـ-1987م.ص419..

[3] ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل 133/2/1.

[4] محمد علي الصابوني، صفوة التفاسيرالمرجع السابق 535/2-536-537.

منها وسقوا ورعوا، وأصاب طائفة منها أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه بما بعثني الله به فعلِم وعلَّم. ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به".[1]

ويذهب الألوسي في روح المعاني إلى أن الله ضرب مثلا بالماء للحق وهو القرآن الكريم في فيضانه من جناب القدس على قلوب خالية عنه متفاوتة في الاستعداد وفي جريانه عليها ملاحظة وحفظا وعلى الألسنة مذاكرة وتلاوة مع كونه ممدا لحياتها الروحانية وما يتلوها من الملكات السنية والأعمال المرضية بالماء النازل من السماء السائل في أودية يابسة لم تجر عادتها بذلك سيلانا مقدرا بمقدار اقتضته الحكمة في الأرض وما عليها ... ومثل الباطل الذي ابتلى به الكفرة لقصور نظرهم بما يظهر فيهما من غير مداخلة له فيهما وإخلال بصفائهما من الزبد الرابي فوقهما المضمحلّ سريعا[2].

وقد ذكر السعدي في تيسير الكريم الرحمن أن الله تعالى في هذه الآية شبّه الهدى الذي أنزله على رسوله لحياة القلوب والأرواح بالماء الذي أنزله لحياة الأشباح. وشبّه ما في الهدى بالنفع العام الكثير الذي يضطر إليه العباد، لما في المطر من النفع العام الضروري، وشبّه القلوب الحاملة للهدى وتفاوتها بالأودية التي تسيل فيها السيول، فواد كبير يسع ماءا كثيراً، كقلبٍ كبيرٍ يسع علما كثيراً، وواد صغير يأخذ ماء قليلا كقلب صغير يسع علماً قليلا وهكذا. وشبه ما يكون في القلوب من الشهوات والشبهات عند وصول الحق إليها بالزبد الذي يعلو الماء، ويعلو ما يوقد عليه النار من الحلية التي يراد تلخيصها وسبكها، وأنها لا تزال فوق الماء صافية مكدرة له حتى تذهب وتضمحل، ويبقى ما ينفع الناس من الماء الصافي والحلية الخالصة[3].

كذلك الشبهات والشهوات لا يزال القلب يكرهها ويجاهدها بالبراهين الصادقة والإرادات الجازمة حتى تذهب وتضمحلّ، ويبقى القلب خالصاً صافياً، ليس فيه إلا ما ينفع الناس من العلم بالحق بإيثاره والرغبة فيه والباطل يذهب ويمحقه الحق كما قال تعالى: ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا (٨١) ﴾[4]، وكما قال تعالى: ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ (١٨) ﴾[5].[6].

خاتمة:

الحمد لله الذي وفقنا للبحث في موضوع دلالات الماء والوقوف على بعض أسرار القرآن الكريم ودلائل إنجازه وأدلته وبراهينه وحججه وأمثاله.

---

[1] أخرجه مسلم، كتاب الفضائل، باب بيان مثل ما بعث به النبي صلى الله عليه وسلم، رقم 4354.

[2] ينظر شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي (1270هـ).روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني. حققه أبو عبد الله فؤاد بن سراج عبد الغفار. الجزء7.(د.ط).المكتبة التوفيقية ،2008م.ص540-541.

[3] ينظر عبد الرحمن بن ناصر السعدي(1376هـ). تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ،ط1. شركة القدس القاهرة. 1429هـ-2008م.ص415.

[4] سورة الإسراء الآية 81.

[5]سورة الأنبياء، الآية 18.

[6] ينظر عبد الرحمن بن ناصر السعدي المرجع السابق ص 415.

الحمد لله الذي شرفنا للبحث في بعض موضوعات القرآن الكريم والوقوف على بعض أسراره ودلائله، ولقد وقفنا على موضوع الماء في القرآن الكريم من خلال بيان دلالاته الإيمانية وبراهينه الإعجازية وحججه الاستدلالية في تقرير بعض المسائل الاعتقادية.

ومن خلال استقراء موضوعات هذا البحث نجد أنّ الله تعالى استدلّ بالماء في القرآن الكريم على مسائل كثيرة جدا، وقد نوّع الحق تبارك في طرق الاستدلال بالماء على هذه الموضوعات، كما عدّد الصيغ والأساليب الدالة على أغراض متعدّدة ومقاصد مختلفة، كما أورده في سياقات متنوعة ومقامات مختلفة ونوّع في تلك الدلائل والحجج والبراهين.

وخلص من البحث ما يلي:

– استدل الله تعالى بالماء في القرآن الكريم للدلالة على الوحدانية والفردانية وتقرير معنى الإلهية وإثبات معنى الربوبية وكمالات الصفات القدسية.

– استدلال الله تعالى بالماء في القرآن الكريم للدلالة على البعث والنشور وقد أورد الحق سبحانه وتعالى آيات كثيرة جدا لتقرير هذا المعنى وجعل الماء دليلا لذلك أو برهانا ومثلا دالا عليه.

– استدلال الحق سبحانه وتعالى بالماء في القرآن الكريم للدلالة على كمال القدرة ولبيان عظمة القادرة المقتدر في تصريف الخلق وتدبير الأمر.

– ذكر الله تعالى الماء دليلا وشاهدا على عظيم هذه النعمة وتقريرا لعظم المنعم على عباده.

– ضرب الله تعالى المثل بالماء لتقرير حقيقة الدنيا وبيان سرعة انقضائها وأنّ مآلها إلى الفناء والزوال، كما ضربه مثلا لبيان حال المنافق وتخبطه في مساعيه وأعماله، كما ضرب الحق تعالى المثل بالماء لبيان عجز المدعوين من دون الله على الاستجابة، وضرب الله الماء مثلا لبيان الحق والباطل.

والحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.

1- فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن ابن علي التميمي البكري الرازي الشافعي (544-604هـ، **التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب**، قدم له هاني الحاج وعلق عليه وخرج أحاديثه عماد زكي البارودي ، المجلد2 الجزء4، (د.ط)، المكتبة التوفيقية القاهرة 2003م.

2- محمد بن أحمد بن جزي الكلبي، **التسهيل لعلوم التنزيل**، ط3 ،دار الكتاب العربي، بيروت لبنان ، 1401هـ-1981م.

3- محمد بن محمد بن عرفة الورغمي(803هـ) ،**تفسير بن عرفة** ، تحقيق جلال الأسيوطي ، ط1،دار الكتب العلمية ، 2008م.

4- محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي الغرناطي ،**تفسير البحر المحيط** ،ط2.دار الكتاب الإسلامي القاهرة، 1413هـ-1992م.

5- محمد ابو السعود افندي، **إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم المسمى تفسير أبي السعود** . (د.ط). دار الفكر بيروت لبنان . (د.ت).

6- شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي (1270هـ).**روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**. حققه أبو عبد الله فؤاد بن سراج عبد الغفار. .(د.ط).المكتبة التوفيقية ،2008م.

7- عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني. **العقيدة الأساسية وأسسها،** ط12.دار القلم دمشق.1425هـ-2004م.

8 - محمد بن أبي بكر أيوب ابن القيم الجوزية ،**إعلام الموقعين عن رب العالمين**. مكتبة بن تيمية مصر .ط1.

9- محمد بن جرير الطبري.(310هـ).**جامع البيان عن تأويل آي القرآن**. حققه وعلق على حواشيه محمود محمد شاكر، راجعه وخرج أحاديثه أحمد محمد شاكر. ط1.دار بن الجوزي القاهرة مصر . 2008م.

10- عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي(546هـ)، **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**.تحقيق المجلس العلمي فاس المغرب .1400هـ-1980م.

11- محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن،** دار احياء التراث العربي بيروت لبنان ، 1405هـ-1985م.

12- يحي بن شرف الحزامي النووي، **المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج،** (د.ط). دار الفكر بيروت لبنان.

13- محمد الطاهر بن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير،** (د.ط). الدار التونسية للنشر تونس 1984م.

14- عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي ،**تفسير النسفي مدارك التنزيل وحقائق التأويل**. قدم له قاسم الشماعي الرفاعي. مراجعة وضبط ابراهيم محمد رمضان . ط1 ،دار القلم.بيروت لبنان. 1408 هـ-1989م.

15- جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي . ط1.**لباب النقول في أسباب النزول**. دار احياء العلوم بيروت لبنان . 1978م.

16- عماد الدين اسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي (774هـ) ،**تفسير القرآن العظيم** ط1، دار بن حزم .بيروت لبنان . 1420هـ-2000 م.

17- محمد بن عبد الله بن صالح السحيم، **الدلالة العقدية للماء في القرآن الكريم**.1431هـ .جامعة الملك سعود كلية التربية قسم الثقافة الاسلامية.

18- علي بن محمد بن حبيب الماوردي البصري (450هـ) ، **النكت والعيون المسمى تفسير الماوردي**. راجعه وعلق عليه السيد عبد المقصود بن عبد الرحيم، (د.ط)دار الكتب العلمية بيروت لبنان.(دت).

19- محمد رشيد رضا ، **تفسير القرآن الحكيم المسمى تفسير المنار** . تحقيق وتعليق فؤاد سراج عبد الغفار .(دط) ،المكتبة التوفيقية.(دت).

20- محمد علي الصابوني، **صفوة التفاسير**. ط1.دار الكتب العلمية بيروت لبنان . 1420هـ-1999م.

21- محمد علي الصابوني .د.صالح أحمد رضا ،**مختصر تفسير الطبري** ،ط2 ،مكتبة رحاب الجزائر.. 1408هـ-1987م.

22- عبد الرحمن بن ناصر السعدي(1376هـ).**تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان** ،ط1. شركة القدس القاهرة. 1429هـ-2008م.

23- محمد جمال الدين القاسمي (1332هـ).**محاسن التأويل** . تحقيق أحمد بن علي حمدي صبح .(د.ط). دار الحديث القاهرة 1424هـ-2003م.

24- محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي(538هـ). **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**. دار الفكر بيروت .(د.ط).(د.ت).